يقول «أسـامة بن زيد رضي الله عنهما: أرسـلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنا لي قبض فائتنا. فأرسـل يقرىء السلام: ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها.

فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع.... كأنها شن[1] ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسـول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

وما هذا النبي إلا رحمة مهداة..

كان لا يشـغله اهتمامه بشـؤون أسـرته عن الاهتمـام بقضايا أمتـه ومواصلة رسالته.

ها هو يسـتدعي أحد القادة الذين برزوا سـريعاً وبشكل ملفت (خالد بن الوليد) ويطلـب منه التوجه نحو منطقة يسـكنها بنو جذامة، وهـم حتى الآن في موقف يبدو غامضاً تجاه الإسلام ودولته، فتحرك خالد بن الوليد رضي الله عنه مأخوذاً بحماس المنتصر العائد من فتح مكة، وإخضاع أكبر قبائل الجزيرة (قريش) لدولة الإسلام، لكن أحداثاً غريبة ومؤسفة لا تحسب على الإسلام وقعت في:

غزوة بني جذيمة.. ومأساة عاشق وحبيبته

لـم ينطلق ابـن الوليد وحده نحو بنـي جذيمة، فمن مـكان لا أعرفه لكنه مفعم بالعواطف القاتلة.. كان هناك شاب يعشق فتاة يقال لها (حبيش) وهي تبادله العواطف نفسـها.. كان حباً عذرياً لم يتدنس برذيلة، أو يتلوث بعهر. لكن ذلك العفاف لم يسلم من المنغصات، فقد قدم الجاه والمال مع أمير لينتزعا حبيشـاً من بين عيني عاشـقها ومضاربـه، لتنطلق العير، وتتمايل الهوادج بحبيش ووصيفاتها، فيتحطم قلب العاشـق ويرغم صاحبه على التحرك، فينطلق خلفها كالمجنون.. عابراً المفاوز والمغاور لا يعرف

---

(١) كأن قعقة نفسه صوت قربة بالية عند تحريكها.

(٢) صحيح البخاري ٥-٤٣١. ومكان النقط: قال حسبته أنه قال

وجهة غير وجهة هودجها، ولا عنواناً غير عنوان طويل تكتبه آثار راحلتها.. كان سفرها الطويل يلهب قلبه، ويلهم شعره حتى توقفت تلك المطايا في آخر المحطات، ونهاية الأسفار، حيث بلغ الجنون والوجد ذروته، ولم يبق في عقل العاشق وقلبه مكان لغير الحبيبة حبيش.. توقفت الرواحل عند ماء (بني جذيمة) وفي الوقت الذي وصلت فيه خيل خالد بن الوليد، وهنا أصبح العاشق أمام حتفين.. حتف حبيش وحتف جيش.

كان ذلك العاشق لا يبالي بأمر خالد، فهو لا يعرفه ولا يعرف رسالته، ولا يهمه أمر ما أرسل به، ولا ما يتحدث هو وجيشه عنه.. كان مأخوذ القلب والعقل، وهو في حالة ذهول تام عما حوله من جيش وسيوف وحتى منطق، أو حتى مجرد رغبة في الحياة.

توقف خالد بن الوليد وكان من بين جنده شاب تضلع بسنة النبي ﷺ وهديه وسمته.. هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقد كان جندياً مطيعاً لإمامه الذي عينه عليه النبي عليه السلام، غير أن ذلك الجندي المطيع لله ولرسوله وولي أمره.. سرعان ما أبدى احتجاجه على أميره وتبرمه من تصرفه. كل ذلك كان يحدث دون حقد، أو شحناء بين الشاب وقائده.. إنما هي الحرية التي منحها الإسلام لأتباعه في محاسبة القائمين عليهم، وإنكار المنكر حتى في حالات تفوق حالات الطوارئ خطورة كحالة الحرب التي يخوضها ابن الوليد اليوم.. تلك الحرية التي جعلت فتى الإسلام يقول: «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا.

فجعل خالد يقتل ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره. فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره»[1].

لكن خالداً رضي الله عنه أصر على حكمه، وأن هؤلاء يملكون وقاحة وتحدياً للإسلام في ساحة حرب لا يردعه سوى السيف، فقام بتوزيع الأسرى لتنفيذ حكم القتل فيهم، وكان بين هؤلاء الأسرى شاب في مثل سن آسره.. شاب مسكين لم يكن من أهل هذه الديار، ولا شأن له بما يحدث، فهو في واد والعالم كله في واد.. شاب قاده قلبه المسكين وضعف إرادته، وعدم معرفته بدين التوحيد إلى التيه في الصحاري..

---

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

خلف هذا الهودج الذي تتربع فيه معشـــوقته ومهوى فؤاده التي تدعى حبيشاً. لم يكن يريد من الدنيا ســـواها.. ســـوى التأمل في عينيها، لكن راحلته ســـاقته ليلتقي بسيف خالد بن الوليد، وهو الآن مأسور عند شاب اسمه ابن أبي حدرد. فما هي:

قصة عاشق حبيش

هي قصة ليســـت من خيال الأدباء والروائيين.. هي حقيقة مرة يرويها من شارك في أحداثها.. معترفاً بالمأســـاة التي ارتكبها، ويســـتغفر الله من ذلك.. يرويها شـــاب اسمه: ابن أبي حدرد.. كتب نهاياتها بيده، وأسدل ستائرها على أرض بني جذيمة.

بداياتها في مراتع الصبا، حيث شـــب فتى وشـــب معه عشق فتاة تدعى حبيشاً.. بادلتـــه الفتاة بحب أضناها وأرقها، لكـــن والد الفتاة كان يحول دونهما، وأخلاق الفتاة كانت حارسا دون تلوث ذلك العشق بما يكدره، وتمر الأيام فترتحل الفتاة عن عاشقها، فيفقد صوابه وينســـى كل شـــيء إلا مطيتها وهودجها، ربما كان والدها أميراً فارتحل عن دياره وجيرانه، وربما جاء أمير فأخذها إلى بيت أكثر ثراءً وجاهاً.

لكن يبدو أن الأمير لم يحمل في هودجه ســـوى جســـدها، أمـــا قلبها فقد أردفه ذلك الشـــاب معه على راحلته، يسير كلما سارت ويتوقف عندما تتوقف، وفي ديار بني جذيمة توقفت القافلة، وخلفها الشاب المتيم أمام جيش خالد، فحدث ما حدث، وأُخذ الشاب أسيراً غير آبه بالأسر، ولا بتلك السيوف، ولا بهذه الحبال، فالحبال التي تربطه بحبيش أقوى، وأسرها لقلبه أقسى.

يقول ابن أبي حدرد: «كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد، فقال لي فتى من بني جذيمة، وهو في ســـني، وقد جمعت يداه إلى عنقة برمة، ونســـوة مجتمعات غير بعيد منه: يا فتى..

فقلت: ما تشاء؟

قـــال: هل أنت آخـــذ بهذه الرمة فقائدي إلى هؤلاء النســـوة حتـــى أقضي إليهن حاجة، ثم تردني بعد فتصنعوا بي ما بدا لكم [إني لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم]. قلت: والله ليسير ما طلبت.

فأخـذت برمته، فقدته بها حتى وقـف عليهن (فإذا امرأة طويلـة أدماء) فقال: اسلمي حبيش قبل نفاد العيش:

أريـتـك إذ طـالـبـتـكـم فـوجـدتـكـم ... بحلية أو ألفيتكم بالخوانق

ألـم يـك أهـلاً أن يـنـول عـاشـق ... تكلف إدلاج السرى والودائق

فـلا ذنـب لـي قـد قلت إذ أهلنا معاً ... أثيبي بود قبل إحدى الصفائق

أثـيـبـي بـود قـبـل أن تـشـحـط الـنـوى ... وينأى الأمير بالحبيب المفارق

فـإنـي لا ضـيـعـت سـر أمـانـة ... ولا راق عيني عنك بعدك رائق

قالت: [نعم فديتك] وأنت فحييت عشراً، وسبعاً وتراً، وثمانياً تترى...

قال: ثم انصرفت به فضربت عنقه»[1].

كانت المرأة تشـاهد عاشـقها وهو يضرب بالسيف.. تشـاهد رأسه يهوى عن جسده الحبيب، فلم تحتمل، ولما سـقط على الأرض تخلت عن وقارها وأسـرارها، وانحدرت من هودجهـا غير آبهـة بما حولها، ولا بمن حولهـا.. انحدرت نحو ذلك الجسـد الذي هوى على الأرض كالفجيعة، وانحنت بمشـاعر تنبض بالموت للموت.. «جاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت»[2] وجداً عليه وحزناً، كأنها أقسى العشاق وأضعفهم.

كان الصحابة ينظرون إلى ذلك المشهد الفاجعة منهم الرافض له والمتكدر كعبد الله بن عمر وأصحابه، ومنهم المندهش الذي فوجئ بما حدث، والصحابة بشـر يخطئون ويصيبون، لكن ما تقييم الإسـلام لهذه المصيبة؟ ومـا موقف النبي ﷺ من فعل خالد ومن أطاع خالداً؟

---

(١) سـنده صحيـح رواه ابـن إسـحاق: السـيرة النبويـة ٥-١٠٠: حدثنـي يعقـوب بـن عتبـة بـن المغيـرة بـن الأخنـس عـن الزهـري عـن ابـن أبـي حـدرد الأسـلمي.. يعقـوب ثقـة: التقريـب ٦٠٨ وشـيخه تابعي ثقة وإمام معروف والزيادة سـندها حسـن رواها النسـائي في الكبرى ٥-٢٠١ أنبأ محمـد بن علي بن حرب قال أنبأ علي بن الحسـين بن واقد عن أبيه عـن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس وهذا سـند حسـن من أجل علي بن الحسين فحديثه حسن إذا لم يخالف قال الحافظ صدوق يهم التقريب٤٠٠، وللحديث شـاهدان في كل منهما ضعف يسـير عند البيهقي في الدلائل ٥-١١٦ وبقية رجال النسائي ثقات.

(٢) انظر ما قبله فهو جزء منه.

دفنت المعشـــوقة ودفن العاشـــق وبقية القتلى، وعاد الصحابة إلى المدينة مثقلين بالهموم والتســـاؤل، ولما وصلوا قال ابن عمر رضـــي الله عنهما «ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد مرتين»[1].

لم يكن الدافع لهذه الأحداث هو التعطش للدماء وشهوة السيطرة والتوسع، لكنها الغيرة على التوحيد، والحماس المفرط الذي يطغى على لغة المنتصر غالباً، وهو أمر لا يمكن تبريره تحت أي عذر، فهو خطأ من خالد دون جدال، وقد تولى النبي ﷺ تحمل مسؤولية ذلك الخطأ، ولم يتنصل من تبعاته، بل لام أصحابه.

والنبي ﷺ بهذه البراءة من ذلك العمل الفظيع.. الذي استبيحت فيه دماء بريئة.. يؤيد احتجاج الشـــاب عبد الله بن عمر على تلك الحادثة، وإنكاره على أميره في ساعة ليست من ساعات السلام والراحة، بل في ساحة حرب يحتاج فيها القائد إلى الطاعة والامتثال من جنده أكثر من أي شيء آخر، لكن الإنكار لا يعني الخروج على إمارة خالد والتمرد عليه أبداً، بل هو مجرد رد الأمير إلى الوحي والصواب الذي بعث به النبي ﷺ. فالأمير يظل بشراً مهما بلغت عظمته.

أما موقف النبي ﷺ الرحيم تجاه ذلك العاشـــق وما حدث له، فيحدثنا عنه ذلك الشاب الذي شارك في إيلام النبي ﷺ، وتألم هو أيضاً مما اقترف.

ابن أبي حدرد الذي أحزنه ما حدث منه تجاه ذلك المسكين يقول: «فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر. فقال رسول الله ﷺ: أما كان فيكم رجل رحيم؟!!»[2]. أما كان فيكم رجل رحيم، فالله غني عن تلك الدماء البريئة.. الإسلام غني عنها، ومحمد بريء مما حدث.. أما فيكم رجل رحيم يمنع حدوث ذلك المشـــهد المؤلم، الذي لم يكن من المفترض حدوثه، فالنبي ﷺ لم يبعث هذه الســـرية لإرغام الناس على الإســـلام، والقائد المســـلم يحتاج إلى إعادة النظر كثيراً، والتفكير أكثر قبل اتخاذ قرار بقســـوة قـــرار خالد بن الوليد رضي الله عنه، فالرحمـــة هي التي جعلت النبي ﷺ يحجم عن قتل الأســـرى في بدر.. رغم تاريخ بعضهم الأســـود ضده وضد أصحابه، وأين هؤلاء

---

(١) هو حديث البخاري السابق.

(٢) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

من أســـرى بدر! والرحمة هي التي جعلت النبي عليه السلام يعفو عن صناديد قريش، فما بالك في أناس أبرياء أرادوا أن يقولوا: أسلمنا. فقالوا: صبأنا. أي صبأنا من دين قومنا، فما بالك برجل عاشق لا ناقة له ولا جمل فيما يجري على الكرة الأرضية.

كان الأمر شـــديداً على النبي ﷺ، لكنه لم يكتف بالحزن فقط، أو البراءة فقط.. لقد مضى الأمر وأصبح تاريخاً، ولم يعد بالإمكان فعل شـــيء تجاه ذلك سوى الحزن، ومحاولـــة التعويض ولو مادياً، حيث اتخذ النبي ﷺ قراراً بدفع تعويضات للمتضررين عن ذلك الذي أحدثه تســـرع خالد وحماسه، فقد قال ﷺ «أما كان فيكم رجل رحيم.. فداء الإثنين بالواحد»[1].

ودفعت التعويضات من قائد الدولة الكبرى والوحيدة التي تكاد تســـيطر على كل الجزيرة العربية كلها.. دفعـــت التعويضات لأهل المقتولين خطأ، فأدرك أولئك عظمة هذا الدين، وهذا القائد الذي يدفع تعويضات وهو في مركز القوي الذي لا يخاف إلا من ربه، ويدفع التعويضات وهو في حالة حرب، فالحرب الإسلامية لها قواعد لا يجوز اختراقها، وقد تم اختراقها خطأ، فلا بد من الالتزام تجاه العدو في هذه الحالة، أما المخطئون فقد استغفروا ربهم وواصلوا حياتهم مع نبيهم وإخوانهم.

وفي هذا العام مرت بالمدينة أوقات عصيبة وظروف صعبة.. رغم وجود النبي ﷺ بين أظهرهم، ولما اقترب وقت نضج ثمارهم أمرهم النبي ﷺ بالاستعداد للتوجه لمناجزة الـــروم علـــى أرض تبوك.. بجيش كان بحاجة إلى كل شـــيء إلا العزيمة والإيمان، فقد كان يعاني من قلة المال والطعام والمراكب، وكانوا يتطلعون إلى هذه الأوقات ليستريحوا ويتمتعوا بظل المدينة وثمارها التي بدأت في النضج، لكن كيف سيتم:

تجهيز جيش تبوك في ساعة العسرة

فهو جيش كبير يتجاوز عدده عدد جيش الفتح، ولم تكن هناك ميزانية للتســـلح، فالكل كانوا جنوداً للإسلام.. الكل كانوا أصحاب مبادئ وأهداف، لا أصحاب وظائف ومرتبات..

الكل يساهم حسب طاقته وإمكاناته، فلا إكراه ولا ضرائب ولا مكوس، وهنا و:

---

(١) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

في مثل هذه الظروف يشرق عثمان بن عفان

يشرق الكرم العثماني، ليؤسس نموذجاً راقياً لرجل الأعمال المسلم الذي لا ينظر إلى الدنيا من خلال الأرقام، بل ينظر إلى الأرقام من خلال الدنيا والآخرة معاً، وليست هذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها عثمان بإنجاز، فقد قال النبي ﷺ «من يحفر بئر رومة فله الجنة؟ فحفرها عثمان.

وقال: من جهز جيش العسرة فله الجنة؟ فجهزه عثمان»[1].

عثمان يتحدث عن ذلك عندما أشرف على الناس من فوق داره ثم «قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن، فابتعتها، فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم... وأشياء عددها»[2]. ومن المؤكد أن هناك من استجاب بسخاء لذلك النداء النبوي، لاسيما وأن هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها للتبرع للجيش، بينما كان في المعارك السابقة يدعو القادرين وأصحاب الرواحل للاستعداد، ولعل عمر بن الخطاب كان في سباق، لكن منافسه لم يكن يشعر به بقدر ما كان يشعر بنداء النبي ﷺ.

عمر يحاول منافسة أبي بكر

يقول رضي الله عنه: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً.

فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٣٥١.

(٢) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-٦٢٥ حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن أبي عبد الرحمن السلمي. السلمي صحابي وتلميذه تابعي ثقة مشهور وزيد ثقة التقريب ٢٢٢ وتلميذه الرقي ثقة التقريب ٣٧٣ (ملاحظة: ذكر الحافظ رحمه الله أنه من الثالثة وترجمته لا توحي بذلك والصواب أنه تابع تابعي لأنه يروي عن صغار التابعين كالأعمش وتلميذه ثقة أيضاً.

فأتـــى أبـــو بكر بكل ما عنده فقال: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً»[1].

ولعـــل هؤلاء الثلاثة يجدون منافســـة من رجل الأعمال الناجـــح المجاهد الرائع (عبد الرحمن بن عوف) الذي يقول: «إن رسول الله ﷺ قال: تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً.

فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، إن عندي أربعة آلاف؛ ألفين أقرضهما الله وألفين لعيالي؟

فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت. فقال رجل من الأنصار: وإن عندي صاعين من تمر،صاعاً لربي، وصاعاً لعيالي»[2].

لكن يبدو أن المنافقين لم يعجبهم هذا التســـارع الجميل بالنفس والمال نحو تبوك، فقاموا بتعويض قصورهم بإطلاق الألفاظ الساخرة من المؤمنين.. يشفون بها تشوهات نفوســـهم، ويطفئون بها جمر الحقد في قلوبهم «فلمز المنافقون وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء. وقالوا: أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا.

فأنزل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾»[3].

المنافقـــون هـــم علمانيوا ذلك الزمـــان.. لا يريدون للدين أي تأثيـــر على حياتهم السياســـية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى العســـكرية، وليس لديهـــم ما يقدمونه، فرسالتهم محصورة في محاربة النجاح والدهشة بما عند الأعداء، وحساباتهم للأمور تنطلق من الخواء الذي يملؤهم ويعيشـــون فيه، والاستهزاء بالآخرين، وإطلاق الكلمات الســـاخرة على الناجحين هو أسلوبهم، ولن يجدوا كغزوة تبوك أنسب لهذه السخرية..

---

(١) سنده حسن من أجل هشام رواه الدارمي ١-٤٨٠ أخبرنا أبو نعيم ثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه سمعت عمر والبقية ثقات، ورواه البزار ١-٢٦٣ حدثنا محمد بن عيسى نا إسحاق بن محمد الفروي نا عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر، وفيه ضعف يسير من أجل عبد الله.

(٢) ســـنده حســـن رواه الطبري ١٠-١٩٥ والبزار من طريق أبي عوانة عن عمر بن أبي ســـلمة عن أبيه. وهو حســـن من أجل عمر حفيد ابن عوف وهو حسن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ في التقريب صدوق يخطئ ٤٣١، وللحديث شواهد في الصحيح وغيره.

(٣) هو آخر الحديث السابق تفسيره.

كيف لا، وهؤلاء المسلمون ونبيهم يريدون مواجهة جحافل أقوى دولة في الدنيا بجيش يجمع التبرعات، ويحتاج إلى نصف صاع وحبات تمر؟! هذه هي حسابات المنافقين، وهي حسابات تفتقد إلى الإيمان بالله، وتفتقد كذلك إلى الثقة بالنفس وقدراتها، لذلك بدأ:

بعض المنافقين يعتذر عن المشاركة في غزوة تبوك

رغم توافر المال والراحلة والصحة لديهم، لكنهم أحسوا بالموت يربض على أرض تبوك، ويحدق بالقادمين إليها، وقد ذكر الله اعتذارهم فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وإذا كان المنافقون يبخلون بأموالهم وأنفسهم عن صحبة النبي ﷺ، فإن هناك رجالاً يتحرقون للخروج معه عليه السلام.. رغم أنهم لا يملكون شيئاً، ولا يملك ما يحملهم عليه، فكانت لحظات الوداع.. لحظات من الدموع فـ:

عند الوداع بكى الرجال

فبعد أن رجوا النبي ﷺ أن يحملهم.. اعتذر من لهفهم وقال لهم: لا أجد ما أحملكم عليه.

عندها لمعت أعينهم وفاضت بالدموع، وعادوا من حيث أتوا مكسوري القلوب، وألم الحرمان يملأ صدورهم.. دموع تفيض لأن الفقر يحول بينهم وبين معانقة الموت والشهادة.. دموع خلدت أصحابها، وتردد ذكرها على مر الأجيال.

أولم يكفهم فخراً أن يذكر ربهم دموعهم، ويتحدث لعباده عنهم. نزل جبريل بكلام الله الذي يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

---

(١) التوبة: ٤٩.

رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

وهؤلاء الذين يستأذنونك هم المنافقون الذين يملكون من المال الوقاحة والأعذار أرصدة طائلة.. هذا أحدهم جاء يعتذر فقبل رسول الله ﷺ عذره، لكن لم يهنأ بالقعود حتى أنزل الله فضيحته آيات ترددها المدينة في الطرقات والمساجد والبيوت وترددها الدنيا.. نزل الوحي يفضح المنافقين، ويشد أزر المؤمنين الذين تثاقل بعضهم مفضلاً تأجيل الخروج إلى ما بعد الحصاد.

نزل الوحي يسلط الأضواء على زوايا المنافقين المعتمة، وأغوارهم المليئة بالأحقاد والكراهية فقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟

---

(١) التوبة: ٩٣.

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟
ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ
مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ
﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن
يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ
هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ
مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ
نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ
وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ
وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا
لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ
يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا
ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ
وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ

﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1].

ويبـــدو أن هذه الآيات قـــد خنقت المنافقين فلم يجدوا هـــواءً يطيق صدورهم، ولا أرضاً تحتمل خطاهم.. لقد حول المنافقون غزوة تبوك إلى مسرح كبير.. يسخر ون فيه من جرأة المؤمنين على غزو الروم، ويتشفون فيه من قلة ما لهم ومتاعهم، وضعف حالهم. فقلب الله عليهم مســـرحهم ذلك، فتحطم فوق رؤوسهم، فأصبحوا خائفين.. خجلين من أنفسهم، ومن الشوارع والأطفال والرجال والنساء، وحتى من نخيل المدينة وجدرانها.

أما المؤمنون فيذكرهم إلههم بحال نبيهم عندما كان شريداً طريداً.. هو وأبو بكر فـــي غار ثـــور وكيف تحقق له نصر الله، وها هم الذين كانـــوا يطاردونه يتأهبون لغزو الروم خلفه جنوداً مخلصين، وســـيأتي اليوم الذي يتأهب الروم خلفه عليه الســـلام أو خلف من يخلفه، ولكن حسابات المنافقين لا تتغير أبداً..

نهـــض الصحابة خلف نبيهم في معركة تمحيص النوايا وتميز الإيمان، ولإن كانت خيبـــر تحمل بصمة لعلي رضـــي الله عنه، فإن بصمة عثمان كانـــت الأبرز على غزوة تبوك، لكن ما الذي حدث لعلي هذه المرة.. إنه ليس ضمن المســـافرين.. هل هو الرمد مرة أخرى؟

علي يتخلف عن تبوك

فقد ســـار النبي ﷺ مغادراً المدينة «ولم يكن رســـول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رســـول الله ﷺ في حر شـــديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمســـلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد الديوان)[2] فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ســـيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله.

---

(١) سورة التوبة: [٣٨-٦٤].

(٢) أي ليس لهم دفاتر تدون فيها الأسماء.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه»[1] ثم خرجوا، وقبل خروجهم توقف، وتوقف معه علي رضي الله عنه معاتباً، ومتوسلاً أن يصحبه في هذا السفر الذي يحتاج إلى علي وأمثاله، فـ «إن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: أتخلفني والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»[2].

كان عليه السلام يثمن كل مجهود وكل مجتهد، وكان لا يغفل أي دور يقوم به أحد من أصحابه، فلئن كان بقاء علي في المدينة يعني في نظره الغياب عن ساحة الوغى، فإنه في نظر النبي ﷺ يقوم بدور هارون.. عندما توجه موسى نحو جبل الطور وهو، دور لا يقل عن دور أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم. وقد كان عليه السلام يعين في كل غزوة رجلاً من أصحابه خليفة له على المدينة - العاصمة، واليوم هو دور علي. لكن علياً هنا تميز عن سابقيه بقرابته من النبي ﷺ، ولذلك استحق أن يكون بمنزلة هارون، لأن هارون عليه السلام كان خليفة وأخاً لموسى في الوقت نفسه.

يقوله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «لما خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى تبوك خلَّف علي بن أبي طالب، فأتاه بالجرف يحمل سلاحه، فقال: يا رسول الله، أتخلفني بعدك ولم أتخلف عنك في غزاة قط؟ قال: يا علي.. ارجع. فقال: يا رسول الله، إن المنافقين يزعمون أنك إنما خلفتني إلا استثقالاً بي.

قال: يا علي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي. ارجع فاخلفني في أهلي وأهلك»[3].

وهو تميز يضع لكل فرد من أفراد الأمة مساحة يطلق فيها إبداعاته، ويجسد فيها إنجازاته. فالله أنزل آيات كريمات في منزلة أبي بكر، وحاز عثمان على الجنة بتلك التبرعات السخية، ومن قبل تميز غيرهم بإبداعات رضي الله عنهم جميعاً، فمن

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٠٢.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٠٢.

(٣) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الدورقي في مسند سعد ١-١٣٩: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه سعد. وإبراهيم تابعي ثقة من رجال الشيخين التقريب ٨٩ وتلميذه ثقة أيضاً التقريب ٤٨٥.

أراد أن ينظر إلى الصحابة نظرة الإسلام لهم، فليسلط أضواء الشمس عليهم جميعاً. ليرى كيف حركوا الدنيا، وشغلوا العالم بتكاملهم، وتنافسهم، وتميز كل فرد بقدرات وإنجازات وظفها النبي ﷺ أجمل ما يكون التوظيف. أما أولئك الذين يزوِّرون حياة الصحابة باختزال الأضواء على حدث، أو فرد، أو يجعلون من بروز أحدهم انتقاصاً لغيره، فهم متعصبون يسيئون للأحداث، وللصحابة معاً، كما يسيء هؤلاء المنافقون الذين يزرعون المدينة بالإرجاف والتخذيل، والسخرية من ثقة المسلمين بأنفسهم، وجرأتهم على حدود أقوى دولة في الدنيا.

لم يكن علي وحده يلح في الخروج.. بعض المؤمنين المعدمين الذين تنوء ظروفهم بهممهم يتوجهون نحو:

النبي ﷺ وهو في حالة غضب

ربما من المنافقين.. أحد هؤلاء الفقراء رشحه أصحابه للتحدث، وهو أبو موسى الذي يقول: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله.. إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم. فقال: والله لا أحملكم على شيء [وما عندي ما أحملكم عليه] ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، فرجعت حزيناً من منع رسول الله ﷺ، ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد في نفسه علي، فرجعت إلى أصحابي، فأخبرتهم الذي قال رسول الله ﷺ، فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي: أي عبد الله بن قيس.. فأجبته.

فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك.

فلما أتيت رسول الله ﷺ قال: خذ هذين القرينين، وهذين القرينين، وهذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد - فانطلق بهن إلى أصحابك، فقل: إن الله -أو قال: إن رسول الله ﷺ- يحملكم على هؤلاء فاركبوهن.

قال أبو موسى: فانطلقت إلى أصحابي بهن فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم، ومنعه في أول مرة، ثم إعطاءه إياي بعد ذلك، لا تظنوا أني حدثتكم شيئاً لم يقله.

فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق، ولنفعلن ما أحببت.

فانطلق أبو موسى بنفر منهم، حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ ومنعه إياهم، ثم إعطاءهم بعد، فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء»[1].. ثم انطلق الجميع خلفه عليه السلام محملين بالمعاناة وشظف العيش، وقلة الزاد وكثير من الإيمان، وقد «خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»[2] ولم يبق في المدينة سوى علي، وأهل الأعذار و:

ثلاثة رجال من الأغنياء يتخلفون

عن مصاحبة النبي ﷺ رغم أنهم ليسوا من المنافقين، فأحدهم كان من أهل بيعة العقبة، وهو الصحابي الشاعر كعب بن مالك رضي الله عنه، الذي لم يتخلف عن غزوة أحد وما بعدها، بل إنهم كانوا من أهل الاستعداد والإعداد لهذه الغزوة. لكنه التسويف والثقة المفرطة بالنفس، والوقت الذي لا يعرف الانتظار.

يقول كعب عن ظروف تخلفه: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حيت تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٦٩ والزيادة له ١٢٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٣ - ١٠٧٨.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم. فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم. فغدوت - بعد أن فصلوا - لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً.

فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء»[1].

كان كعب يشعر بغصة وبغربة داخل مدينته، لأنه لم ير فيها إلا الضعفاء والمنافقين، وهو ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء..

هو من أولئك الذين يكابدون خلف النبي ﷺ لمجابهة الروم الذين تأهبوا للقضاء على هذه الدولة الجديدة، لكنه التسويف الذي يورث الندم، ويكدس الوظائف ويصيب الإنسان بالإحباط.

لم يكن كعب وحيداً في معاناته.. هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع يمران بالتجربة المريرة نفسها، ولما تحدث الناس عنهما أمام كعب قال: مشيراً عليهما «ذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما إسوة»[2] ثلاثة من السابقين إلى الإسلام يبحثون عن مخرج مما هم فيه، ولا سبيل؟ فالنبي عليه السلام الآن في طريقه يشق السراب والعطش والقفار، في قيظ محرق ولهيب مشتعل. وإذا كان هؤلاء الثلاثة قد فقدوا الأمل باللحاق به عليه السلام، فإن رجلاً رابعاً لم يتسلل اليأس إلى نفسه..

إنه الرجل الذي تصدق بالصاع وسخر منه المنافقون:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٢٤.

أبو خيثمة يلحق بالنبي

في قصة تفيض بحب الله ورسوله.. يتحدث عنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فيقول: «حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما، في حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وقد بردت له فيها ماء، وهيأت له طعاماً، فلما دخل قال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم! ما هذا بالنصف. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زاداً.

ففعلتا، ثم قدم ناضحة فارتحل، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال لعمير: إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى أقدم على رسول الله ﷺ فسار»[1] فتقدم أبو خيثمة قبله نحو النبي ﷺ.. الذي كان يعاني وأصحابه من لهيب القيظ، وشدة العطش إلى درجة لا يستطيع التعبير عنها إلا الذي عاناها وكابدها.. ومن بين هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يقول: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى أن الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده.

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا. فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع يده فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلمت، ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جازت العسكر»[2] أي أن السحابة أمطرت على معسكر المؤمنين فقط.

معاناة شديدة تكشف عن طبيعة هذا الدين، وأن الله قضى أن لا ينتشر ويحكم في الأرض إلا بجهد البشر وتضحياتهم، وبدون ذلك لن يتمكن أبداً. أما المعجزات

---

(١) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق، وله شاهد عند الطبراني ٦-٣١.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ١-٥٣ من طريق ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير عن ابن عباس. ابن وهب إمام وشيخه مثله، وسعيد صدوق، وعتبة وشيخه ثقتان. وكلهم من رجال التقريب.

الحسية، فهي أدلة وبراهين تأتي مع الأنبياء، وتغادر معهم، لكن حتى المعجزات تقف طويلاً على أبواب العناد الموصدة بأقفال صدئة.. كأبواب المنافقين التي أقفلوها، وأقفلوا عقولهم دونها قديماً وحديثاً.

المنافقون لا تنفع معهم حتى المعجزات

في الطريق إلى تبوك آية كالشمس.. معجزة إلهية في السماء، وآثارها على الأرض.. لا تحتاج إلى بيان، لكن عقول المنافقين قد تعفنت مع الزمن والعناد.. سأل رجل أحد الصحابة عن النفاق والمنافقين فقال له: «هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه، ومن بني عمه ومن عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك. لقد أخبرني رجل من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الحجر[1] ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، أقبلنا عليه نقول: ويحك أبعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة.

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحاب رسول الله ﷺ في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له (عمارة بن حزم) وكان عقبياً بدرياً، وهو من بني عمرو بن مخزوم، وكان في رحله (يزيد بن نصيب القينقاعي) وكان منافقاً فقال يزيد - وهو في رحل عمارة وعمارة عند النبي عليه السلام-: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، ولا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها وهي في هذا الوادي من شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها. فانطلقوا حتى تأتوني بها.

فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: والله لأعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه كذا وكذا للذي قال يزيد ابن نصيب..

---

(١) الحجر ديار ثمود قوم صالح شمال المدينة.

فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: ابن نصيب والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبل عمارة على يزيد يجافي عنقه ويقول: يا آل عباد الله إن في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج أي عدو والله من رحلي فلا تصحبني»[1] ولا يلام عمارة بما فعله بيزيد المنافق هذا، فهؤلاء الذين أغلقوا ضمائرهم وعقولهم، وأكل الحسد والعناد قلوبهم، واستنفدوا كل طرق الإقناع.. لا يجدي معهم سوى الترك، لأنه لا فائدة ترجى ولا أمل يبقى، فلا داعي لإهدار وقت يستحقه غيرهم ممن يتلهفون للحقيقة والتوحيد.

لم يكن العطش وحده.. الخوف كذلك كان يخيم على بعض مراحل الطريق إلى تبوك..

يقول المتدلي من حصن الطائف نحو الإسلام (أبو بكرة) رضي الله عنه: «صلى النبي ﷺ في خوف الظهر، فصف بعضهم خلفه، وبعضهم بإزاء العدو، فصلى بهم ركعتين، ثم سلم، فانطلق الذين صلوا معه فوقفوا موقف أصحابهم، ثم جاء أولئك فصلوا خلفه فصلى بهم ركعتين ثم سلم، فكانت لرسول الله ﷺ أربعاً ولأصحابه ركعتين ركعتين»[2]

كما كان عليه الصلاة والسلام يجمع في طريقه ذلك بالطريقة التي يقول عنها «معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيغ الشمس أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر، فيصليهما جميعاً، وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم سار[3]. وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخر المغرب حتى يصليها مع

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حزم في المحلى ١١-٢٢٢ والطبري في التاريخ ٢-١٨٤: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان الطفري قال: قلت لمحمود ابن لبيد: وعاصم تابعي مر معنا كثيراً ثقة عالم بالمغازي وشيخه صحابي.

(٢) سنده على شرط البخاري رواه أبو داود وغيره ٢-١٧ من طرق عن أبي حرة والأشعث وهما ثقتان عن الحسن عن أبي بكرة والحسن مدلس،والبخاري رحمه الله روى بهذا السند أربعة أحاديث وربما أكثر في: الركوع دون الصف، والكسوف، وتولية المرأة، وأن الحسن سيصلح به الله بين فئتين. وأبو بكرة لم يسلم إلا بعد حنين.

(٣) ملخص ما يفعله عليه السلام في الجمع، أنه إذا تحرك قبل دخول وقت الصلاة الأولى أخر الجمع، وإذا أذن المؤذن قبل أن يتحرك قدم الجمع ثم انطلق.

العشـــاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشـــاء فصلاها مع المغرب»[1] هذا عن الجمع والقصر، أما عن:

الصيام في السفر الشاق

الصيام في هذا السفر الشاق حدث من بعض الصحابة، «جابر بن عبد الله قال: خرجنا مع رســول الله ﷺ في غزاة تبوك، وكانت تدعى غزوة (العســرة) فبينما نسير بعدما أضحى النهار، فإذا هو بجماعة تحت ظل شــجرة، فقالوا: يا رســول الله رجل صام فجهده الصوم؟ فقال ﷺ: ليس البر أن تصوموا في السفر»[2]

كان النبي ﷺ وأصحابه قد وصلوا إلى مكان اســمه حجر ثمود وهو ما يســمى بـ (مدائــن صالح) وهو المكان الذي كانت تعيش فيه قبيلــة ثمود، وهم قوم النبي صالح عليه الصلاة والسلام الذي أهلكهم الله بعد كفرهم وقتلهم الناقة، التي جعلها الله آية ومعجزة لنبيه، وبعد:

الوصول إلى ديار ثمود

أسرع بعض الصحابة يروون عطشهم، ويستسقون الماء ويعدون الطعام مستخدمين المــاء الموجود في هذا المكان، لكنهم فوجئوا بصوت مرتفــع يناديهم: الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة...

وهي لفظة ينادي بها النبي ﷺ أصحابه للاجتماع داخل المســجد أو خارجه. فما الذي حدث؟

---

(١) ســنده صحيح رواه الترمذي ٢-٤٣٨ وابن حبان ٤-٣١٣ والبيهقي في الكبرى ٣-١٦٣ عن قتيبة بن سعيد الثقفــي ثنا الليث بن ســعد عن يزيد بــن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بــن جبل. يزيد تابعي ثقة فقيه وتابعه أبو الزبير وقد عنعن لكن ذلك لا يضر فهو من طريق الليث كما صرح بالسماع عند الدارمي ١-٤٢٦ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) سنده حسن رواه ابن حبان ٨-٣٢١ حدثنا عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة عن جابر وقد أخطأ عمارة، والصواب هو ما قاله ابن أبي حاتم في العلل ١-٣٣١ قال أبي: روى هذا الحديث شعبة عن محمد بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن الحســن عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ومحمد ابن عمرو تابعي ثقة وكذلك تلميذه.

يقــول أحد الصحابة: «نزل رســول الله ﷺ بالناس عام تبــوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستســقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبــوا القدور باللحم»[1] و«لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشــربوا من بئرها، ولا يســتقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واســتقينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء»[2]

و«قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم، ثــم تقنع بردائه وهو على الرحل»[3] «ثم زجر فأســرع حتى خلفها»[4] فنهض الصحابة «فأهراقــوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثــم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشــرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا. قال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»[5] «وأمرهم أن يســتقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»[6] فامتثلوا أمر نبيهم عليه الســلام، ثم قام النبي ﷺ في أصحابه خطيباً وحدثهم عن قوم صالح، وعن مصير الرجل الشهير أبي رغال. فما هي..

خطبة النبي ﷺ

يقول جابر رضي الله عنه: «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات، وقد ســألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر مــن هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوم، ويشربون لبنها يوما، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل.

قيــل: من هو يا رســول الله؟ قال: هو أبو رغال، فلما خــرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[7]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري وأحمد واللفظ له وســند أحمــد صحيح ٢-١١٧ حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر يعني بن جويرية عن نافع عن بن عمر قال وصخر ثقة.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٦.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٤) صحيح مسلم ٤-٢٢٨٦.

(٥) هو جزء من حديث أحمد السابق أحمد ٢-١١٧.

(٦) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٧) سنده صحيح على شرط مسلم رواه أحمد ٣-٢٩٦ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس لكنه صرح بالسماع عند الفاكهي في أخبار مكة ٢-٢٥١.